بسم الله الرحمن الرحيم

(في الأدب الإسلامي)

موسوعة العقاد الإسلامية ورده على شبهات المستشرقين وافتراءات الغربين على الإسلام ونبيه .

"عرض وتعليق "

أ.د / زهران محمد جبر

رئيس قسم الأدب والنقد بالكلية

هذا الطرح ما هو إلا قراءة متأنية في جانب من نتاج المفكر العصامي والكاتب الموسوعي الأديب الناقد " عباس محمود العقاد" –رحمه الله– أرصد فيها ظاهرة لافتة للنظر في عموم محصلته الفكرية ، وفى بحوثه في الحضارة الإسلامية والسيرة النبوية وتراجم الشخصيات بوجه خاص تتمثل هذه الظاهرة في اصطباغ ذلك النتاج بالصبغة الإسلامية،وانطلاقه من رؤية إسلامية وارتكازه عليها ولست مبالغا إذا قلت : إن العقاد كان يتنفس الإسلام ويتحرك به كما كان ملء شرايينه وعقله

، والبوصلة التي كانت تدله – دائما– في سبحاته الفكريـــة ، وتدفعه إلي عالمه البحثي .

ظل الإسلام الرافد الرئيس للعقاد في زمان ومكـــــان عجـــا بالتيارات الفكرية والمذهبية المختلفة الوافدة ، التي اســتقطبت السواد الأعظم من شرائح المثقفين الذين استماتوا في الدفـدع عنها بعد اعتناقها والتبشير بها .

ومع هذا الجو المحبط لانكاد نجد للعقاد –رحمه الله – نتاجـا لا يكون الإسلام الروح التي تبث الحياة فيه وتدفعه وتتقدم بـــه من بين وسط يضج بالفساد والمعطوب .

ولعل استعراضي الموجز لموسوعة العقاد الإسلامية كما طبعـها ناشرها دار الكتاب العربي في بيروت سنة ١٣٩١ هجريـــة/ ١٩٧١ م في خمسة مجلدات ، وهى كما يدل عليها عنوانهـــا جامعةً لقسم من نتاج العقاد ، لدليل على ضخامة ما قدمـــه للحقل الثقافي في مصر خاصة وللعالم العربي والإسلامي عامة .

هذه المجلدات تربو صفحاتها على أربعة الآف صفحة .

المجلد الأول :

يشتمل على ثلاث وتسعين وثمانمائة صفحة تحدث فيها عـــن التوحيد والأنبياء ، ثم فصل ذلك بـــالحديث عـــن :الله،وأبى

الأنبياء إبراهيم ، وعيسى بن مريم في التاريخ وكشوف العصر الحديث، حياة المسيح ، مطلع النور ، طوالع البعثة المحمدية .

المجلد الثاني :

من الموسوعة تتضمن العبقريات التي كتبها العقاد على مدى اثنين وتسعين وتسعمائة صفحة ، وهى على التوالي : عبقرية محمد (ص) ، وعبقرية الصديق ، وعبقرية عمر، وعثمان ذو النورين ، وعبقرية الإمام على ، وعبقرية خالد ، وكل عبقرية تقع في كتاب مستقل ضم إلى بعضه في هذا المجلد .

والمجلد الثالث :

يقع في ثمانمائة وسبعين صفحة ، تناول فيها شخصيات إسلامية : فاطمة الزهراء ابنة الرسول (ص) ، والحسين بن على أبا الشهداء ، وعائشة الصديقة بنت الصديق ، وبلال بن رباح مؤذن الرسول(ص) ، ومعاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية ، عمرو بن العاص دهاء وبلاء ، وكل شخصية من هذه الشخصيات تحدث العقاد عنها في كتاب مستقل إلا أن منهج الموسوعة اقتضى الناشر إلى ضمها .

والمجلد الرابع :

يقع في ثمانمائة وخمس عشرة صفحة عنوانه العام : القرآن والإنسان ، تحدث تحته عن : الفلسفة القرآنية ، ثم عن الإنسان في القرآن ، المرأة في القرآن ، الإسلام في القرن العشرين ، الديموقراطية في الإسلام . وهذه البحوث تتضمن عددا كبيرا من البحوث الفرعية في طياتها .

والمجلد الخامس :

يقع في ست وسبعين وتسعمائة صفحة ، اشتمل على مجموعة من البحوث الإسلامية تحت العناوين الكبيرة التالية : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ما يقال عن الإسلام ، ماذا يقولون ، بل كيف يقولون ؟ الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام ، وتحت هذه العناوين الكبيرة خمسة وثمانون بحثا فرعيا .

وكان همّ العقاد الشاغل فيما ألف ، والناشر من بعده فى جمع الموسوعة ، هو إبراز أهمية الإسلام كمنهج لحياة الأفراد والجماعات والأمم حكاما ومحكومين ، وكذلك الدلالة على أن هذا الدين الخاتم إنما هو للناس كافة ومن ثم استعرض الديانات الكتابية السابقة وبين خصوصيتها ومحدوديتها بالزمان والمكان والبشر ، ثم انتهى من كل ذلك إلى أن نهضة

الإنسان ورقيه وسعادته في الدنيا والآخرة ، إنما يكمن في هذا الملاذ الآمن ، وسوف أضمن هذه القراءة حديث العقاد- رحمه الله _ عن مفهوم الديموقراطية في الإسلام لنتبين رأيه ووجهته في حاكمية الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان ، دينا ودولةَ ، وقد رد في ثنايا هذه المجلدات على المرجفين والمنخذلين الذين يستدبرونه ويستقبلون شرائع الأهواء الدنيوية ، وأغراض النفوس المريضة التي تعد القوانين وفق مصالحها لإذلال الإنسان واستعباده من دون الله . والعقاد في بحث مقارن ينتهي إلى أن الخضوع لله وحده واتباع شرعه وسنة نبيه (ص) هو العاصم للإنسان من الظلم ، وواقيه من الرق والدونية ، وتحت مظلة هذا الخضوع لله وحده يتساوى الجميع ، لا فرق بين عربي وأعجمي ، وأبيض وأسود إلا بالتقوى .

ولأنه من المستحيل أن أقدم في هذه العجالة طرحا يستجمع الإشارات الكاشفة لما في هذه الموسوعة لتنوع المادة العلمية وغزارتها أولا ، ثم كثرة البحوث وتعددها وتعمقها ثانيا ، فان هذه القراءة سوف تقتصر على عرض تفنيد العقاد لشبهات المستشرقين حول بعض قضايا الإسلام ، وردوده على الغربين

الحاقدين على الإسلام ، والمستشرقين الذين يثيرون اللغط حول سيرة النبي (ص) ، وفى هذا المجال أكاد أجزم أن العقاد – رحمه الله – لم يدع شبهة أثيرت حول الإسلام ونبي الإسلام إلا ضحدها ، أو فرية ادعاها أعداء الإسلام إلا نبذها وردها على قائليها بالأدلة العقلية والنقلية ، والبراهين المنطقية الناصفة المفحمة يجلى بها الحق ، ويقنع بها الخصم ، ويسكت بها المناكف اللدود .

وقبل استعراض المزاعم التي تصدى لها العقاد بالرد يجدر أن أقدم هذا الطرح بفقرة من مقدمة ناشر الموسوعة يقول :

" سيظل عباس محمود العقاد في تاريخ الأدب المتناول لهذه العقود الستة من القرن العشرين التي نحياها ، الدوحة الأرحب بما وسعت ظلالها من أقاليم المعرفة ، وبما قدمت ثمارها من ألوان الثقافة المختلفة الطعوم .

وإن ذلك ليتضح إذ نرجع البصر كرة في ثبت المؤلفات التي نتجت عن يراع هذا المؤلف المعطاء ، فيها القصة والرواية ، وفيها الدراسة والبحث ، وفيها التحقيق والتقرير ، وفيها المطالعات والمراجعات ، وفيها الخطرات والاستقصاءات وفيها غير ذلك .

ولعل الجامعة التي تربط بين هذا النتاج الثر المتنوع المتلون هي تلك السمة الطاغية التي تسم ذلك النتاج كافة : سمة تقديس الحقيقة ، وسمة احترام الوسيلة المفضية بها إلى الناس بما تقتضيه هذه الوسيلة من لغة ونهج واختيار .

ونحن إذ نورد هذا الانطباع العام لما نقدمه من نتاج العقاد لا ندعي تقويمه ، بل كل ما نهدف إليه هو الإشارة إلي طابعه العام .

لقد شرح العقاد ثمانية من كتبه " العبقريات " ،و " شخصيات إسلامية " وغيرها ، من أراد أن يتبينها يرجع إلى تلك الكتب ، ولكننا نشير هنا إلي أن " الصورة المستحدثة التي مال العقاد في تأليف خطوطها واختيار ألوانها ، لإبراز كثير من وقائع التاريخ التي احتاج إلى إبرازها في رسم عبقرية كل من أبطال المسلمين الذين هدف إلى إبراز عبقريتهم وفى إبراز ملامح كل شخصية من الشخصيات الإسلامية التي تصدى إلى عرضها ، هي الصورة التي يستسيغ المحدثون استيعابها واستجلاءها ، والتحلى من جمالها ، لينتهوا بعد ذلك إلى تمثلها"[1] .

---

[1] ١١-١٢ : مقدمة الموسوعة

إلى جانب ما أشار إليه العقاد مثلا في عبقرية محمد (ص) موضحا سبب تأليفه له قائلا " الكتاب تقدير لعبقرية محمد (ص)بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان وليس في قلب كل مسلم وكفى ... ثم يستطرد : " محمد هنا عظيم لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس ، عظيم لأنه على خلق عظيم ، وإيتاء العظمة حقها لازم في آونة وبين كل قبيل ، ولكنه في هذا الزمن ، وفى عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى لسببين متقاربين لا لسبب واحد: أحدهما أن العالم اليوم في أمس الحاجة إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق معرض للجفوة والكنود .

والسبب الآخر أن الناس قد إجترأوا على العظمة في زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها ، فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة ، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التميز وتظلمهم المساواة ، والمساواة هي شرعة السواد الغالبة في العصر الحديث . ثم

يقول " وحسبنا من عبقرية محمد (ص) أن نقيم البرهان على أن محمدا(ص) عظيم في كل ميزان ، عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ، وعظيم في ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية إلا أن يَرِينَ العنت على الطبائع فتنحرف عن السواء ، وهى خاسرة بانحرافها [1] .

ولقد كان في إطلاع العقاد على قسط وافر الغزارة من كتابات أهل الغرب في التاريخ الإسلامي مجال لرده الكثير من مواطن سوء فهم بعض المؤرخين الغربيين لبعض المواقف في ذلك التاريخ ، ولرده الكثير من خطأ التعليل لدى أولئك المؤرخين في كثير من المواقف أيضا ، فضلا عن تعريته لكثير من التغرض الذي ظهر منهم في الحكم على بعض المواقف في بعض الأحيان .

وسيلة العقاد في الإقناع:

ولعل أقوى ما اصطنعه العقاد من وسيلة للإقناع فيما كتبه : الروح الحيادية ، والاحتكام إلى المنطق ، ومعطيات علم المناهج وعلم النفس والمحاكمة العقلية والنهج العقلاني ، فلم

---

[1] ٢٢-٢٣: مقدمة عبقرية محمد موسوعة العقاد , دار الكتاب العربى ١٩٧١م

يكن فيما أراد إثباته أو نفيه ذلك المؤمن الذي يكتفى بإيمانه ، ويقتصر على أدلة ذلك الإيمان ، ويدعو الخصم إلى منازلته في ساحته هو ، بل انتقل إلى ساحة الخصم ، واستعمل سلاحه حتى لا يكون للخصم إذ يغلب أي تعلة في انهزامه وحبوط رأيه وحكمه [1] .

ووفق هذا المنهج الذي اختطه العقاد لنفسه في الرد على من خالفه الرأي عموما ، وعلى آراء المستشرقين في الإسلام على وجه الخصوص نورد هنا بعض الشبهات التي أثارها الغربيون للنيل من الإسلام وحسم العقاد لها بتفنيد آراء الجائرين ، والمتطاولين عليه وعلى نبي الإسلام (ص) وكأن العقاد – رحمه الله – كان يتوقع أن هذه الشبهات ستظل مثارة على المدى – وقد صدق ما توقعه – لذا لم يترك لدجال مجالا في أن يشكك في الحقيقة التي جلاها في تلك القضايا بما دعم آراءه من أدلة وبراهين .

فمن الشبهات التي أثارها المؤرخون الغربيون ما تحدثوا به في نزاهة العبادة يقول العقاد : " تعود بعض المصابين بداء الهذر من المؤرخين الغربيين أن يتكلموا عن نزاهة العبادة ويذكروا

---

[1] ١/١٢ : الموسوعه

النعيم السماوي كما وصفه الإسلام بين النقائض التي تقـــدح في العبادة التزيهة .

وما من دين من الأديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، ومـــا من أمة من الأمم في عصر الدعوة الإسلامية ، كانت صـــــور النعيم السماوي عندها مقصورة على صورة واحدة تؤمن بهـــا ولا تؤمن بغيرها .

فليس الإيمان بالثواب والعقاب مخلا بنزاهة الدين ، وما مـــــن دين يستحق أن يسمى دينا يسوى بين الصالحين والمفسدين،أو يحجر على النفوس أن تطمح إلى النعيم الذي ترتضيه.

إنما الميزان الحق للعبادة التزيهة هو الصفة التي يتصف بها الإلـه المعبود ،ومن أجلها يتعبد له المؤمنون.

وأنزه العبادات ولا ريب هي العبادة التي يدين بها المؤمـــن لله جل وعلا لأنه حق وهدى ،ولأن الإيمان بـــه هـــو الصـــدق والصواب.

هذه العبادة أنزه من العبادة التي تتجه بها الأمة إلى الله لأنـــــه يقوم لها مقام الحارس في وجه الأمم التي تخشاها ،وهى أنـــــزه

من العبادة التي تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف الرئاسة والزعامة[1].

سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المترهة المثلى، وهذه هي رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال ، قبل شهادة المتدين لدينه أو المتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه .

وفيما ادعاه بعض الغربيين من أن النبي (ص) أعترضه الصرع في صغره يقول العقاد في نهاية حديثه عن والدي النبي (ص) عبد الله وآمنة يقول " ولا ندع الكلام على الأسرة النبوية وفى الحاضر سؤال توحي إلينا أن نسأله وأن نجيب عنه ما أستطيع الجواب .

لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين ، ولا يكون الموت في هذه السن إلا علامة على الضعف والهزال – كما يدعى أولئك بمقاييسهم البشرية القاصرة التي لا تعي الحمكة الإليهة في فعله وتقديره سبحانه وتعالى– أن لم يكن من مرض يستنفد الأجل في عنفوان الشباب .

---

[1] ٨٤٠-١/٨٢١ : الموسوعه

فهل كان محمد (ص) سليل أبوين ضعيفين هزيلين ، إن لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لدفع هـذا الظن فلا حاجة إلي دافع له غير حياة الوليد ، ما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان ، وقد سأل أناس من كتاب الغـرب هذا السؤال ، وخيل إليهم أنهم وجدوا جوابه في قصة الصرع المزعوم قبل الفطام ، وفيما كان يعروه من برحاء[١] الوحـي التي وصفها الأقربون منه وأيسرها أنه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه في اليـوم الشـاتى عـرق كحـب الجمان[٢] .

وعجيب أن يصاب الإنسان بصرع ولا يعروه غير مرة واحدة في سن الرضاع ، ثم لا يعاوده إلا مـرة أخـرى إلى قرابـة الأربعين . وأعجب منه أن يصاب به بعد الأربعين في حالـة واحدة ، حين يلتقي الوحي ثم لا يصاب به مرة في غير تلـك الحال .

ولكنه ليس بالعجيب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقـها في غاشية كغاشية الوحي كائنا ما كان قوام البـدن الـذي

---

[١] برحاء الوحى : الشدة والجهد .

[٢] الجمانة : حبة تعمل من الفضة كالدرة .

تغشاه ، ولا أن أحدا من الأنبياء وصف لنا كما وصف محمد عليه السلام في كل لمحة من لمحاته ، وفى كل حركة من حركاته ، وفى يقظته ورقاده ، وفى حديثه وصحته وفى جلوسه ومسيره ، وفى ركوبه وارتحاله ، فلم تكن له صفة قط في كل أولئك غير صفة البنية السوية والخلق القويم .

كان (ص) باتفاق جميع واصفيه فوق المربوع ، بعيد ما بين المنكبين ، غزير الشعر ، تلمس جمته شحمة أذنه ، شثن الكفين والقدمين ، ضخم الكراديس – أي ملتقى العظام – ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، أدعج العينين ، أهدب الاشفار ، إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صَبَبٍ ، ذريع الخطوة سائل الأطراف [1] .

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف منطق النبي بشيء ينم على اضطراب في عصب أو عضل ، أو ينبئ عن عرض من الأعراض غير سليم أو قويم ،

---

(١) المربوع : لاطويل ولا قصير . الجمة : مجتمع شعر الرأس . شثن الكفين : غليظهما . المطهم : المنتفخ الوجه . المكلثم : المدور . الأهدب : طويل أهداب العين مع انعطاف . الدعج : شدة سواد العين مع سعتها . ذريع : سريع

كان (ص) ضليع الفم ، يتكلم بكلام بيّن فصل مفسر ، إذا أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها – أي صحب كلامه بما يوافقه من حركتها – وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ليس بصخاب ، ولا يرتفع له صوت في غير دعاء .

وهذه صفات كلامه (ص) مما يزيد على عشرين مصدرا جمعها أبو عيسى الترمذى صاحب الشمائل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مساغ اشتباه في عرض من أعراض خلل الصرع والاضطراب ، بل هي كلها توكيد للمنطق السليم والخلق القويم " الله أعلم حيث يجعل رسالته "[1] . وقد جعلت رسالة محمد (ص) حيث ينبغي أن تكون خلقا وخلقا من ميراث الزمن وميراث الأجداد والآباء ، فكل خلق وصف به فهو الصالح لأداء رسالته ، والنهوض بأمانته ، إن تكن ضريبة من ضرائب العظمة الكبرى – ولابد لها من ضريبة–

---

(١) بعض الآية رقم ١٢٤ : سورة الأنعام .

فتلك هي النقص في نسله (ص) ليستوفى التمام من أمر هـذه الذرية الباقية إلى يومنا وبعد يومنا . جامعة داعية لكـل مـن تابعيه، وكل مولود له في عالم الضمير من بنيه وغير بنيه[١]

وفى بعض معرض رده على دعاوى المغرضين وأعداء الإسـلام في أن الإسلام انتشر بحد السيف والإرهاب

يقول العقاد :

" ما من حركة كبرى في التاريخ تنضح للفهم – مع التحفـظ على كلمة حركة – إن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهومـها بأسبابه الواضحة المستقيمة التي لا عوج في تأويلها ، وما مـن شيء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسـباب الطبيعية البينة ، ثم يخيل إليه أن الدعوة الإسـلامية كـانت فضولا [٢]غير مطلوب في هذه الدنيا،وأن نجاحها مصطنـع لا سبب له غير الوعيد والوعود ، أو غير الإرهـاب بالسـيف والإغراء بلذات النعيم ، ومتعة الخمر والحور العين .

أي إرهاب وأي سيف ؟!

---

[١] ٨٩٠-١/٨٩٢ : الموسوعه

[٢] الفضالة والفضول : ما فضل من الشيىء

إن الرجل حين يقاتل من حوله ، إنما يقاتلهم بالمئات والألوف، وقد كانت المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ، ولا يعرضون أحدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتا[1] ولا يصيبون أحدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ، ولا يخرجون أحدا من داره .

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ، ووعيد الأقوياء المتحكمين ، ولما تكاثروا وتناصرو حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الإرهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بسلطان .

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع .

أما الإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين ، فلو كان هو باعثا للإيمان لكان أحرى الناس أن يستجيب إلي الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرهم ، وأصحاب الترف

---

[1] العنت : الشدة والتعب .

والثروة فيهم . ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستيفاء النعمة ، فان حياة النعيم بعد الموت محببة إلى المنعمين تحبيبها إلى المحرومين ، بل لعلها أشهى إلي الأولين وأدنى ، ولعلهم أحرص عليها وأحنى ، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال[1] .

إن في قصة إسلام عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لدليل على ذلك خرج بالسيف ليقتل محمدا ، ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف وقرأ صدرا من سورة طه ليس فيه ذكر للخمر والنعيم فأسلم حين لقي الرسول عليه السلام ، فلا جبن إذا ولا طمع في إسلام عمر بن الخطاب ، بل رحمة وإنابة واعتذار.

ولم يكن في إسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرا ، وأضعف منه بأسا جبن ولا طمع ، لأنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله . وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة ، فيقال إن الذين

---

(١) ١/٣٩ : الموسوعة .

سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنـــة ، وجبن عن مواجهة القوة ، ولكنهم اختلفوا حيـــث تطلـــب طهارة السيرة وصلاح الأمور ، فمن كان قريبـــا إلى هـــذه الطلبة من غنى أو فقير ، ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ومـن كان به زيغ عنها فقد أبى وهذا هو الفيصـــل القـــائم بـــين الفريقين ، قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه ، وبعـد أن تجرد له سيف تهابه السيوف ، وما يقسم الطـــائفتين أحـــد، فيضع أبا بكر وعمر وعثمان – رضى الله عنهم – في جـــانب اللذة والخوف

ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشـــجاعة إلا أن يكون له هوى كهوى الكفار من قريش في الإصرار والإنكار.

إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لهـا الحوادث ، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقـــة أحوالـــه وصفاته . فلا حاجة بها إلى خارقة منكرها العقل ،أو إلى علـــة عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء فهي أوضح فهما لمن أحـــب أن يفهم وهى أقوم شيء سبيلا لمن استقام.

ويستطرد العقاد موضحا ما ذهب إليه في أن الإسلام كـــان يدافع عن نفسه حين يعتدي عليه قائلا :

" وقبل ذلك ينبغي أن نستحضر في الذهن بعض الحقائق التي تظهر لنا الاختلاف بين الدين الإسلامي والأديان الأخرى في مسألة القتال لتثبت أن للإسلام شأنا في اجتناب القوة كشأن كل دين ، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلي جانب ذلك صالحا للانتصار ، وإن الأديان الأخرى ما كانت لتحجم عن عمل أقدم عليه النبي لو كانت دعوتها كدعوته ,وكانت أسبابها كأسبابه .

فالحقيقة الأولى : أن مطعن القائلين بأن الإسلام دين قتال واعتداء مردود عليهم ، وذلك أن واقع الإسلام في بداءة عهده كان هو المعتدى عليه ، ولم يكن من قبله اعتداء على أحد، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القوم حول النبي عليه الصلاة والسلام فانهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين "[1].

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة فلم يكن لهم قط عدوان ولا

---

(١) الاية ١٩٠ : سورة البقرة

إكراه . وحروب النبي (ص) –كما سلف – كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم ، ففي موقعة تبوك (حملة تبوك) عاد الجيش الإسلامي أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبي نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامي عن القتال على فرط ما تكلف الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره .

والحقيقة الثانية :

أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع ، ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف سلطة تقف في طريقه ، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه[1]. لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولاغنى في إخضاعها عن القوة .

---

[1] ٤٤-٢/٤٥ : الموسوعة

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة ، وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء وفى الأعقاب بعد الأسلاف ، وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آبائهم عليها ،وأن زوالها يزيل مالهم من سطوة الحكم والجاه .

وقصد النبي (ص) بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية فيمتنع القتال .

الحقيقة الثالثة:

أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها .

فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ، وهذا ما قضى القرآن الكريم حيث

جاء فيه " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فـــان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين "[١] .

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيـــه " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهمـا على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمـــر الله فـــان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين "[٢] .

والحقيقة الرابعة :

أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لابد من ملاحظتـــها عند البحث عن هذا الموضوع فإن مما يميـــز الإســـلام عـــن اليهودية والمسيحية انه قد ظهر في وطن لا سيطرة للأجنـــبي عليه وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقريـــر الأمن والنظام (ووقف العبودية لله وحده) .

والحقيقة الخامسة :

أن الإسلام شرع الجهاد وأن النبي عليه الصلاة والسلام قـــال " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله ، فان قـــالوا

---

(١) الاية ١٩٣ : سورة البقرة

(٢) الايه ٩ :سورة الحجرات

عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقهما وحسابهم على الله " .

وجاء في القرآنِ الكريم " فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين على القتال عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا"[١] .

وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العـــرب ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح ، إلا أن هـــذه الفتوح تأخرت في الزمن ، ولم يتم شيء منها قبل اســـتقرار الدولة للإسلام ، فلا يمكن أن يقال إنها كانت وسيلة الإســلام للظهور ، وقد ظهر الإســـلام قبلـــها وتمكـــن في أرضـــه ، واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت في سبيله هـــذا إلى جانب أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مـــع أداء الجزية والقائمة للحكومة القائمة .[٢]

---

(١) الاية ٨٤ : سورة النساء

(٢) إشارة إلى الآية "(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (التوبة:٢٩)

والحقيقة السادسة :

أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها ، تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع[١]، فقد استقر الإسلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار، وانتظمت بينها العلاقات ، ولم يكن نظام ، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم ، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه ، فالإسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار ، إلى جانب قدرته على إكراه من يركب رأسه ويقف في طريق الإصلاح .

وبعد أن يستعرض هذه الحقائق يعقب العقاد بقوله " صفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق ، وإن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك .. إلا أن يحال بينها وبين انتضائه أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها ، وإن الإسلام عقيدة ونظام ، وهو من حيث النظام

---

(١) ٤٨/١٢: الموسوعة

شأنه كشأن كل نظام في أخذ الناس بالطاعـــة ومنعـهم أن يخرجوا عليه[١].

وكعادة الغربين عامة والمستشرقين والمبشرين منهم على وجـه خاص في البحث جادين عما قد يسيء إلى الإســلام ويعـد مأخذا يشنعون به على الإسلام ونبي الإســلام والصحابـة ففتشوا في ثنايا السيرة العطرة ونبشوا أضابير التاريخ وتوقفـوا طويلا أمام مقتل كعب بن الأشراف اليهودي الــذي كــان يهجو المسلمين ويقدح في دينهم ويؤلب عليــهم الأعــداء ، ويأتمر لقتل النبي عليه السلام ، ويدخل في كل دسيسة تنقـض معالم الإسلام ، وكان مع قومه بنى النضير معــاهدا علــى أن يحالف المسلمين ويحارب من يحاربوهم ،ولا يخرج لقتــلهم ،ولا يقابلهم إلا بما يقابل به الحليف حليفه من المودة والمعونه .

عدّوا مقتله اغتيالا وخيانة واكثروا من اللغط حوله ، فردهـم العقاد على أعقابهم خاسئين وسفه آراءهم وسرد موجبـــات قتل ابن الأشراف وبرهن على ذلك من خلال استقصاء مـــا أقدم عليه كعب بن الأشراف من كيد ونقض العــهد ، وزاد على تأليب العرب مع قومه على النبي عليه السلام وصحبـــه

---

[١] ٤٨ – ٢/٤٩ : الموسوعة

وأنه رجع إلى المدينة فشبب المسلمين حتى آذاهم ، وافترى عليهن وعليهم ما ليس يفتريه رجل شريف ، وليس يرضاه في عرضه عربي غيور[١].

وقد ورد في حديث مقتله أن الرهط الذين خرجوا لقتله انتهوا إلى حصنه فهتف أبو نائله – وكان حديث عهد بعرس– فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت "انك امرؤ محارب ،وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة" .

وصدقت امراته حين وصفته بأنه محارب ،يعامل معاملة المحاربين،وقد حنثوا في أيمانهم ، فلم يكن راعيا لعهده ،ولم يكن له وازع من نفسه ولا من قومه ،ولم يكن مأمونا على المسلمين وهولائذ بحصنه ،فهو اقل الناس حقا فى أمان.

وجاء فى الخبر أن النبي عليه السلام أقر مقتله،فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك وحسبوه–كما سلف–خروجا على سنين القتال.

والواقع أن ابن الأشراف أخذ بصنيعه وغدره وكيده وإساءته إلى المسلمين،بل وتجاوز ذلك إلى التأليب والائتمار وثلب

---

[١] ٢/٦٦ : الموسوعة

الأعراض فكان حقه الموت،وليس في توقيع هذا الحكم قسوة ولا رحمة،لان المرجع فيها إلى الضرورة التي أوجبت القصاص وفرضته على الناس في أحوال المسلم من أبناء الأمة الواحدة، فضلا عن أحوال القتال بين الأعداء.

ويلحق بقتل ابن الأشراف ما أخذه بعض المستشرقين من قتل بعض الأسرى بعد وقعة بدر وخروج النبي إلى ساحة الحرب لرؤية صرعى المعركة وغنائمها بعد انتهائها.

يقول العقاد:هذا أمر لا يصح الحكم فيه إلا بالنظر إلى موضعه وموقعه وأشخاصه لانه ليس بالحكم العام الذي اتبعه الإسلام في جميع الأسرى وجميع الحروب، وانما هي حالة أفراد كانوا معروفين بتعزيب المسلمين والتنكيل بهم في غير مبالاة ولا نخوة،وليست هي كحالة الأسرى الذين يقعون في أيدي أعدائهم غير معروف بماض ولا حاضر سوى انهم جند كسائر الجند الذين يحشدهم الأعداء.

فقتل الأسرى بعد بدر إن هوإلا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا في أيدي من يتولى عقابهم من الغالبين، جاز هذا في كل قانون،وجاز ان يحاسب المغلوب على جرائمه التي ليست هي من فروض القتال أو من مباحاته في

شيء،وفرق بين معاملة هؤلاء ومعاملة أسير كل ما تعلمه في شأنه انه جندي لابغضاء بينك وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح، وليس في عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال الشريف.

أما رؤية القتلى في ساحة الحرب فقد نسى فيها أولئك الناقدون أن اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة إنسانية لا غضاضة فيها، لم تجاوز حدها إلى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء، وهذا مالم يزعمه أحد من شاهدي المعركة عن النبي عليه الصلاة والسلام، ولانم عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين.

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرا لينظروا بعين النبي عليه السلام، إلى عواقب هذه الواقعة التي أوشكت أن تصبح الواقعة الحاسمة في تاريخ الإسلام [١].

كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبي إلى جيشين أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد والأخر في ثلث من يقاتلونه عددا ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ومن كل مطية غير الإقدام.

---

[١] ٢/٦٨ : الموسوعة

وكان عليهم أن ينظروا إليه وقد مد يديه وشخص ببصره، وجمع نفسه في صلاته ، حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر يرده ويناديه:ان الله منجز لك ما وعدك.

وكان عليهم أن يعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجالا منهم يرجعون إلى مكة قبل المعركة أو بعدها ليثابروا على مناوأة النبي وإعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد وليس عليه الصبر بيسير.

كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح في مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه وأنه شعور مطبوع في نفس حية تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة في مواقف السلم أو مواقف القتال[١] .

وفيما حدث بعد معركة الأحزاب من قتل مقاتلي بنى قريظة بعد أن استحكم الرسول فيهم سعد بن معاذ يقول العقاد :

" ونحن في صدر الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا أن نستقصي ما ذكره المؤرخون الأوربيون من مآخذ في قتل المقاتلين من بنى قريظة بعد معركة الأحزاب .

---

(١) الموسوعة : ٢/٦٩

فان أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفا للعرف المتبع في الحروب وينسون أموراً لا يصدق الحكم في هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم الاستحضار وهي أن بنى قريظة حنثوا في أيمانهم مرات فلا يجدي معهم أخذ المواثيق من جديد ، وأنهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه ، وأن سعدا إنما دانهم بنص التوارة الذي يؤمنون به كما جاء في التثنية " حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل من في المدينة غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك ..."[1]

وينبغي أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هذا : ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب ؟

فالقضاء الذي قضاه النبي في بنى قريظة عدل وحكمة وصواب ، وما من أحد وهو مؤتمن

---

[1] التثنية : إصحاح ١٠-١٥

على مصير أمة يرجمها من غدر أعدائها ومن لددهم فى خصومتها ، ومن استباحتهم كل منكر في التربص والوثبة بعد الوثبة عليها .

وإن حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة يحملها قوم مسلحون على قوم عزل يذودون عن أوطانهم وحقوقهم لفيها من البطش والتعذيب ما لم يحدث قط نظير له في عقاب بنى قريظة ، ولا في جميع الحروب التي نشبت بين النبي عليه السلام وبين أعداء له ولدينه ، هم المتفوقون عليه في العدد والثروة والسلاح .

وفى تعدد أزواج النبي عليه السلام وما أثاره الغربيون من افتراءات وشبهات يقول العقاد[1] :

للإسلام خصوم محترفون وخصوم ينكرونهم على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه عليه السلام .

ولا خفاء بخصومة المحترفين ، فهم جماعة المبشرين الذين اتخذوا القدح في الإسلام صناعة يتفرغون لها ويعيشون منها ، وصناعتهم هذه لا تصطنع عملا لها أهم وأخطر من عملها في تبشير المسلمين أو تبشير الوثنين وأشباه الوثنين لكيلا يتحولوا من الوثنية إلى الإسلام ، فلا غنى لاصحاب هذه الخصومة –

---

[1] ١١٤-١٢٥/ ٢ : الموسوعة

أو هذه الحرفة – من اختلاق المآخذ ، وتصيد التهم التي تجرى بها أرزاقهم وتتصل بها أعمالهم . سواء عرفوا الحقيقة من وراء هذه المآخذ وهذه التهم أو جهلوها وأعرضوا عن البحث فيها ، لانهم يريدون الاتهام ولا يستريحون إلى معرفة تهدم كل ما عملوه ، وتصرفهم عن كل ما ألفوه وعقدوا النية عليه .

أما خصوم الإسلام من غير زمرة المبشرين فأكثرهم يخاصمونه على السماع ولا يعنيهم أن يبحثوه ، ولا أن يبحثوا دينا من الأديان ، حتى الدين الذي آمنوا وشبوا من جحور أمهاتهم عليه . وقليل من أولئك الخصوم غير المحترفين يتلفق الدراسات الإسلامية تلفقا لا يفيد الدارس ولا ينبغي منه إلا أن يعلم ما تعلمه لطائفة من التلاميذ يكفيهم منه أن يعرف من أخبار الإسلام مالم يعرفوه ، وبعض هؤلاء الدارسين المدرسين حسن النية ، لا يأبى أن يعترف بالحقيقة إذا استمع إليها وبعضهم سيئ النية لأنه سخر فلبى خدمة الاستعمار وما إليها من الدعايات الدولية ، فلا يعنيه من المعرفة إلا ما يملىء له في عمله ويمهد لدعايته

وما اتفق خصوم الإسلام عن سوء نية على شيء كما اتفقوا على خطة التبشير في موضوع الزواج على الخصوص ،

فكلهم يحسب أن المقتل الذي يصاب منه الإسلام في هذا الموضوع ، هو تشويه سمعة النبي عليه السلام ، وتمثيله لاتباعه في صورة معيبه لا تلائم شرف النبوة ، ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح وأي صورة تغنيهم في هذا الغرض الأثيم ، كما تغنيهم صورة الرجل الغارق في لذات الجسد العازف في معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

ثم يردف العقاد قائلا : انهم لعلى صواب في الخطة التي تخيروها لاصابة الإسلام في مقتله من هذا الطريق الوجيز ، وانهم لعلى أشد الخطأ في اختيارهم هذه الخطة بعينها إذ إن جلاء الحقيقة في هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه ، فإذا مقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ، ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذي يفتري عليه[1] .

فلا حجة للمسلم على صدق محمد عليه السلام في رسالته أصدق من سيرته في زواجه وفى اختيار زوجاته ، وليس للنبوة

---

[1] ١٨٧ –١٨٨/ ٥ : الموسوعة

من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

ثم يتساءل العقاد : ما الذي يفعله الرجل الغارق في لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه

ويجيب على هذا التسأول : لم يكن عسيرا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأفتن جواري الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية ، ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه .

فهل فعل محمد (ص) ذلك في مطلع حياته ؟

كلا لم يفعل قط بل فعل نقيضه ، وكاد يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش في داره ، ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لانها مليحة أو وسيمة ، ولم يبن بعذراء قط إلا العذراء التي علم قومه جميعا أنه اختارها لانها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

هذا النبي الذي يفتري عليه الأئمة الكاذبون أنه الغارق في لذات حسه ، وقد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين ،

وكان هو (ص) في عنفوان شبابه لا يجاوز الخامسة والعشرين ، قد اختارته زوجا لها لأنه الصادق الأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة وفيما لقبه به عارفو الصدق والأمانه فيه ، وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعه النقية ، ثم وفى لها بعد موتها ، فلم يفكر في الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة وقت له في عزلته ، فخطبت له السيدة عائشة بإذنه ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه (ص) لذكراها .

وما بنى- عليه السلام - بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هي الباعث الأكبر في نفسه الشريفة على التفكير في الزواج بهن ومعظمهن كن أرامل مؤيمات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن ، إن لم يفكر فيهن رسول الله(ص)[1].

فأم المؤمنين(سودة بنت زمعة)، مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ، ولا مأوى لها بعد موته إلا أن

---

[1] ٤٨٠-٤٨١/٤ : الموسوعة

تعود إلى أهلها فيكرهوها على الردة، أو يتزوج بغير كفء لها لا يريدها.

وأم المؤمنين (هند بنت أبي أمية-أم سلمة-)مات زوجها عبد الله المخزومى ، وكان أيضا ابن عمها أصابه جرح في غزوة أحد فقضى عليه، وكانت كهلة مسنة، فاعتذرت إلى الرسول عليه السلام بسنها لتعفيه من خطبتها ، فواساها قائلا: سلى الله يؤجرك في مصيبتك وأن يخلفك خيرا،فقالت: ومن يكون خيرا لي من أبي سلمة؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها، فاعتذرت بمثل ما اعتذر به إليه، فطيب خاطرها،و أعاد عليها الخطبة حتى قبلتها. وأم المؤمنين جويرية بنت الحارث كانت في السبي فتزوجها الرسول(ص) وأعتقها وأسلم قومها بسببها.

وأم المؤمنين(رمله بنت أبي سفيان) تركت أباها وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها في غربتها بغير عائل يكفلها، فأرسل النبي عليه السلام إلى النجاشي يطلبها من هذه الغر به المهلكة وينقذها من أهلها إذا عادت إليهم راغمة من هجرتها في سبيل دينها، ولعل في الزواج بها سببا يصل بينه

وبين أبي سفيان بوشيجة النسب ،فتميل به من جفاء العداوة إلى مودة تخرجه من ظلمات الشرك إلي هداية الإسلام.

وأم المؤمنين(حفصة بنت عمر بن الخطاب) مات زوجها، معرضها أبوها على أبي بكر فسكت، وعرضها على عثمان فسكت، وبث عمراسفه للنبي -عليه السلام- فلم يشأ أن يضن على صديقه ووليه بالمصاهرة التي شرف بها أبو بكر قبله، وقال له تزوج حفصة من هو خير لها من أبي بكر وعثمان.

وأم المؤمنين(صفية بنت سيد بنى قريظة) خيرها النبي عليه السلام بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها،فاختارت البقاء عنده على العودة إلى زويها، ولولا الخلق الرفيع الذي جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن السيدة صفية قصيرة يعيبها صواحبها بالقصر، ولكنه سمع إحدى صواحبها تعيبها بقصرها فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى:إنك قد نطقت بكلمة لو ألقيت في البحر لكدرته.

وجبر خاطر الغربية أن تسمع في بيته ما يكدر ويغض منها.

وأم المؤمنين(زينب بنت جحش)- ابنة عمته- زوجها من مولاه ومتبناه زيد ابن حارث،فنفرت منه وعز على زيد أن

يروضها على طاعته، فأذن له النبي في طلاقها فتزوجها، لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها ولم تفاجئة بروعة لم يعهدها.

وأم المؤمنين (زينب بنت خزيمة) مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا في غزوة أحد،ولم يكن بين المسلمين القلائل في صحبته (ص) من تقدم لخطبتها فتكفل بها عليه السلام، إذ لا كفيل لها من قومها.

هذا هو الحريم المشهور في أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين، وهذه هي بواعث النفس التي استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها،فلم يفهموا منها إلا أنها بواعث إنسان غارق في ذات الحسي.[1]

إن المبشرين الحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج في =

= السيرة النبوية مقتلا بصيب الدعوة أو صاحبها، ولكنهم كشفوا منها حجة لا حجة مثلها في الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسالته، وإخلاصه لها في سره كإخلاصه لها في علانيته، ولو أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا في

---

[1] ٤\٤٨٢:الموسوعة

السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم فى التشهير بها واللغط فيه[١]

ويعقب الكاتب الكبير قائلا :" ولسنا نعتقد أن دينا رفيعا يسول للمتدين أن يفتري الأباطيل على خلق الله،أوليقبل من ذلك في شرع الدين الرفيع أن يكون الافتراء على الناس سبيلا إلى التبشير بكلمات الله، ولكن المبشرين المحترفين لا يدينون بالله ولا بالناس، وانما يدينون بعبادة الجسد الذي ينكرونه ذلك الإنكار، ويؤمنون في أعمالهم وأقوالهم أحسن الإيمان.

ما أشبه اليوم بالبارحة:

لقد كتب العقاد منذ خمسة عقود أو يزيد عما تموج به جغرافيا العالم الآن من فتن وإطراب في الشرق والغرب،وقد كشف فاضحا في عدة مقالات تحت عنوان" ما يقال عن الإسلام" دور المفكرين الغربيين المتعصبين والحاقدين =

= على الإسلام في إذكاء الحروب وافتعال الصراعات لاهداف سياسيه.

---

[١] ٤\٤٨٥: الموسوعة.

ووضع الإسلام والمسلمين في بؤرة الكيدوالنيل والاستقطاب والتمزق، يقول العقاد:"كثرت بعد الحرب العالمية الثانية كتابات الغربيين في موضوع الأمم والعقائد التي كان لها شأن في مضطرب الأفكار والنزعات بين المعسكرين المقاتلين، ثم كان لها شأن مثل هذا في ميادين التنافس بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية،وبخاصة ما كان منها مرتبطا بالدواعي النفسية التي تمليها العقائد الدينة على أنصار الفريقين.

واستتبعت كثرة الكتابة في هذا الموضوع،كثرة الكتابة في موضوع الإسلام والأمم الاسلامية،لأن الإسلام دين ونظام اجتماعي،وله بهاتين الصفتين علاقة بما ينتشر اليوم من المذاهب العامة في شئون السياسة والإجتماع.

وكتاب الغرب – حين يكتبون عن الإسلام يتفاوتون في قيمة الكتابة ولكن تفاوتهم على حسب البواعث والنيات ،أضعاف تفاوتهم على الدراية والمعرفة،لانهم طوائف مختلفة لا تتفق في الوجهة ولا في الخلق ولا في الاستعداد.

فمنهم المبشرون الذين ينحرفون عن الصواب اضطرارا واختيارا بباعث من التعصب وباعث من حكم الصناعة أو

الحرفة ، لأن التبشير عندهم منفعة يعيشون عليها ويحرصون عليها حرصهم على القوت والجاه .

ومن يكتبون عن الإسلام من الغربيين أناس يخدمون السياسة الغالبة على دولهم ويصطنعون له الدعاية تارة ولغة الدهلن أو الدبلوماسية تارة أخرى[١].

وبعد أن تحدث العقاد عن أشتات الكتب الحديثة التي ألفها الغربيون عن الإسلام والمسلمين بين الفرق بين زمر المؤلفين من حيث الإخلاص والتجرد وطلاب المعرفة وطلاب العقيدة وبين المتعصبين والملحدين الذين تعرضوا للمسلمين وعرضوا بما اعتقدوه أو تعودوه ، ولكنهم في قلة الإخلاص أو سؤ النية أنواع ودرجات[٢] .

ويخص طائفة الماديين الملحدين الذين يدعون إلى هدم المجتمعات القائمة ويقولون بأن الأديان كافة عقبة تعترض " الإصلاح الاجتماعي الذي يلغى الروحيات ويستبدل بها الماديات" في كل مطلب من مطالب الحياة الدنيا ولا حياة غيرها لإنسان ، يخص هذه الطائفة بالحديث الكاشف لنفوسهم المريضة وهمهم

---

[١] ٥/٢٨٩ : الموسوعة

[١] ٥/٢٩٢ : الموسوعة

الساقطة ونواياهم الخبيثة يقول : ونصيب الإسلام عند هؤلاء الملحدين المادين أوفر الأنصبة وأولاها بالتقديم في خطة الهدم والتشويه ، لأن المسيحية لا تزاحم مذهبهم الإجتماعي بذهب شامل لمسائل التشريع والنظم الاجتماعية والحكومية ولكن الإسلام يقيم المجتمع على نظامه ، ويقرر الحقوق والواجبات بقسطاسه أو"بميزانه"،ويحيط بشئون الدين والدنيا في حياة الآحاد وحياة الجماعات،ويتقبل البناء الجديد على قواعد أساسه الخالد، دون أن يضطر المسلم إلى إنكار قاعدة من قواعد العبادات فيه والمعاملات.

ولا يقل عن هؤلاء الكفرة في عدواتهم للإسلام جماعة "المؤمنين المحترفين" سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق، ويتوسلون بها إلى جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الأوربية والأمريكية، فهولاء أصحاب مصلحة في تسوية الدين الإسلامي وتمثيل المسلمين على الصورة التي تذكى عند القوم جذوة التعصيب وتملى لهم في الجهالة والغفلة[1] .

---

[1] ٢٩١-٢٩٤\٥: الموسوعة

ويستطرد العقاد مستعرضا هذه الطوائف موضحا درجة عداوة كل طائفه للإسلام والمسلمين حتى يصل إلى أخطرها وأشدها عداوة واكثرها تصميما على التربص والنكاية بالإسلام ، فيقول :" وأخطر المغربين جميعا طائفتان تملكان من وسائل الأعلام ما ليس لطائفة أخرى من طوائف المغربين وهما الصهيونية وطائفة الاستعمار .

ويهون خطب الصهيونية الساخرة في دعايتها السياسية أو العنصرية فان الغربين يعرفون أكاذيب هؤلاء الصهيونين ، ولا يساعدهم من يساعدهم هناك جهلا بما يفترون على ضحاياهم أجمعين ، وانما يساعدونهم (لانهم ينظرون إلى الإسلام) كخطر عليهم أشد ما يكون من خطر الصهيونية وما يماثلها من الأخطار العنصرية . ولعلهم في الغرب لم يسلموا من دعاية صهيونية تحاربهم وتفتري عليهم في مسائل الدين ومسائل السياسة ، كلما بدا للصهيونية العالمية مأرب عند هذا البلد أو ذاك فإذا أعلن الصهيونيون حملاتهم مصرحين بأسمائهم ، فلا ثقة بما يروجون ، ولا ضير على المسلمين منهم ولا غير المسلمين[١] .

---

[١] ٢/٢٩٦ : الموسوعة

ولكن الدعاية المقنعة اخطر ما يستطيه هـــؤلاء الصـــهيونيون والحملات التي يشنونها في أرجاء العالم بأسماء غيرهم هـــي في الواقع سلاحهم الذي يعولون عليـــه ، لأن جمـــهرة القـــراء يصغون إليها ولا يهتمون قائليها بل لا يشـــعرون بـــداع إلى الاتهام في أكثر الأحيان .

وقد عرف الصهيونيون في عصرنا هذا مواطن القـــوة الـــتي تسخرها الدعاية ، فاستولوا على الكثير من أدواتها وبرعوا فى تسخيرها وإخفاء مراميها ، فهم يملكون شـــركات الإعـــلان فتحسب الصحف الكبيرة قبل الصغيرة حسابهم ،ولا تتـــورع عن خدمتهم أو السكوت عنهم على الأقل وكتمان ســـيئاتهم ومآربهم . إذ كانت الصحف الكبيرة – خاصة – أحـــوج الى الإعلانات لكثرة تكاليفها تبعا لكثرة صفحاتها فلا تكاد أثمانهـــا تفي بتكاليف الورق فضلا عن تكاليف التحرير لولا مـــوارد الإعلانات .

ويملك الصهيونيون دور النشر فيحسب المؤلف حسابهم كمـــا يحسب الصحفيون .

وقد يتبرع المؤلف بمرضاتهم ونشر دعايتهم تمهيدا لقبول كتبه وإذاعتها بالترويج والتفريط ، وخلق الجو الصالح للاهتمام بها واللغط حولها ، ولا تقتصر وسائلهم أحيانا عن ترشيحها لاكبر الجوائز العالمية من قبيل جائزة نوبل بالسويد وجائزة بولتايزر بالولايات المتحدة ، لأن نوبل نفسه يهودي ولجان التحكيم فلى الولايات المتحدة لا تخلو من اليهود أو من يسيطر عليهم اليهود بوسائل الإعلان والترويج .

ويملك الصهيونيون اسهما وافرة في شركات الصور المتحركة وينتسب إليهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح[1] .

والى جانب هذه الوسائل الفنية أو المادية وسائلهم وراء الستار – وأمام الستار – بين السياسة والنواب والمرشحين لمراكز الزعامة والمتنازعين على الأصوات في مواسم الانتخابات ، وليس استخدامهم لوسائل الجمال في هذه المعارك وما إليها بأقل من استخدامها لوسائل المال .

والمغرضون : في خدمة الاستعمار قوة تضارع الدعاية الصهيونية الخفية إن لم تزد عليها في بعض الأحوال

---

[1] ٢/٢٩٦-٢٩٧ : الموسوعة

إذ هي قوة الدولة وقوة المال وسائر القوى المسخرة للسياسة والتبشير مجتمعات .

وليس من النتظر ولا من العقول أن يتصدى المستعمرون لاعلان الحقائق المشرفة لضحاياهم الأولين وضحاياهم البلقين تحت نيرهم ، وهم غير قليلين ، ولكن المستعمرين خلقاء ان يعلموا أن معرفة الحقيقة عن الأمم المطموع فيها ، أجدى عليهم في معاملاتهم معها من كتمان الحقيقة وتضليل الأذهان عنها ، إذ كانوا يخدعون أنفسهم ويضللون أبناء بلادهم إذا وضعوا لهم تلك الأمم المطموع فيها على غير حقيقتها ، فيخسرون لا محالة كما يخسر التاجر الذي يجهل أحوال =

= (زبائنه) من الغنى والفقر والامانه والغش ، والوفاء والمطال.

ثم يخلص العقاد إلى أن : " النتيجة التي نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الإسلام والمسلمين في عصرنا – هي تميز المخلصين منهم وغير المخلصين ، وحصر البواعث التي تدفع غير المخلصين إلى الجهل للحقيقة وإخفائها إذا عرفوها . فالمخلصون منهم هم طلاب العلم وطلاب العقيدة ، وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية ، والمتعصبون للدعوة

المادية ، والمتعصبون للدين عن إيمان أو غش و واحـــتراف ، وطلاب الغرائب ودعاة الصهيونيه والاستعمار[١].

على أننا لا نعدم وسط ذلك الركام من الحقد والتصميم على الكيد للإسلام والمسلمين ، بعض المنصفين من طلاب الحقيقـة والباحثين في نزاهة واخلاص عن الحكم الصائب من الغربـين تقول د. الس ليختستادتر في كتابهـا " الإســلام والعصـر الحديث " موضحه دور الغرب المعادى للإسلام في التشـنيع عليه بادعاء اعتماده في الفتوحات على القتال :

"وقد جسمت العداوة المسيحية خطر الحـرب المقدسـة فى إخضاع البلاد التي لا تدين بالإسلام للسيطرة الإسـلامية، إذ ان القتال لم يكن له كل هذا العمل فى انتشار الفتوح حـتى في أبان القرن الأول بعد الدعوة، وانما تم معظم هـذه الفتـوح بالتسليم ومعاهدات الصلح، ووردت في هـذه المعـاهدات فقرات تبيح لاهل الكتاب من أبناء البلاد المفتوحة ان يحتفظوا بعقائدهم وشعائرهم بشروط ليست على الجملـة بالمرهقـة، فليست فكرة النار والحديد بالفكرة الصحيحة التي يؤيدهـا الواقع، ومن الميسور كما يقول المؤرخ(توينـبى) ان تسـقط

---

[١] ٢٩٩/ ٥ : الموسوعة

الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوا في تجسيم اثر الإكراه في الدعوة الإسلامية إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف وانما كان تخييرا بين الإسلام والجزية، وهى الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك وفى البلاد الإنجليزية على عهد الملكة(اليصابات).[١]

ثم تضيف:" بل نحن نجد ان الوثنين من أهل البلاد المفتوحة لم يعرضوا على السيف على قول الفقهاء المسلمين، وهم اكثر الداخلين في الإسلام عددا خلال القرون التالية، وهم اصدق برهان على الخطة العملية في انتشار الإسلام"

ولما احتمد ادعاء المدعين وتفاقم جدال المنطعين وتتدافع المتفيهقون يسلبون الإسلام صلاحية أن يكون أساسا للحكم فى جميع مجالات الحياة ويجردونه من وظائفه الأساسية،فند العقاد تلك الادعاءات.و أشار إلى ديمقراطية الإسلام بعد ان تتبع نظم الحكم منذ الإمبراطوريات القديمة عبورا بالعصور التالية وحتى عصر الإسلام ثم خلص إلى:

---

(١) الموسوعة: ٥\٣٠٥ (٢),

" ان شريعة الإسلام كـــانت اســبق الشـــرائع إلي تقريـــر الديمقراطية الإنسانية، وهى الديمقراطية التي يكسبها الإنســان لانه حق له يخوله ان يختار من يحكمه وليست حيلة من حيـــل الحكم لاتقاء شر أو حسم فتنة،ولا هي إجراء من إجـــراءات التدبير تعمد إليها الحكومات لتيســـير الطاعـــة والانتفـــاع بخدمات العاملين واصحاب الأجور.

وتقوم الديمقراطية الإسلامية، هذه الصفة، على أربعة أسس لا تقوم ديمقراطية كائنة ما كانت على غيرها، وهى:

١- المسؤلية الفردية،

٢- عموم الحقوق وتساويها بين الناس .

٣- وجوب الشورى على ولاة الأمور .

٤- التضامن بين الرعية على اختلاف الطوائف.

هذه الأسس كلها أظهر ما يكون في القرآن الكـــريم وفى الأحاديث النبوية ، وفى التقاليد المأثورة عن عظماء الخلفاء فالمسئولية الفردية مقررة في الإسلام على نحـــو صريـــح وبآيات متكررة تحيط بأنواع المسئولية من جميع الوجوه .

فلا يحاسب إنسان بذنب إنسان " ولا تزر وازرة وزر أخـــرى " ولا يحاسب إنسان بذنب آبائه وأجداده ، أو بذنب وقـــع

قبل ميلاده " تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ " ولا يحاسب إنسان بغير عمله : " وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى " ، " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " ، " ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ " ومن تفصيل المسئولية في كل شيء قوله عليه السلام " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الأمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته " .

أما عموم الحقوق – يقول العقاد -- فالقرآن صريح فى مساواة النسب ومساواة العمل " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ " .

وكلمة التقوى تشمل المسئوليات جميعا ، لانها تشمل كل ما يطالب الإنسان بأن يتقيه ويسأل عنه إذا وقع فيه .

وسواء في الدنيا والآخرة لا تغنى الأنساب شيئا عن الإنسان " فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ " .

وفى الأحاديث النبوية تفصيل لكل معنى من المعاني ، فمنها قوله عليه السلام ، وقد أخذ يذكر الأقربين الأقرب فالأقرب إلى الأعمام والبنين :

" يا معشر قريش اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا يا بنى عبد مناف : لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي ، لا أغنى عنك من الله شيئا " .

والنبي صلوات الله عليه هو القائل:إنه " لا فضل لاعربى على أعجمي ولالقرشى على حبشي إلا بالتقوى " .

وقد وضحت التسوية بين الناس في الدعوة من قوله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ " ... فليس الإسلام دعوة مقصورة على جنس من الأجناس ، ولا على عصبة من عصب السلالة ، بل كانت هذه العصبةَ أبغض شيء إلى صاحب الدعوة .

أما الحكم بالشورى فالقرآن الكريم صريح في وجوبه ، وليس بعد إيجابه على النبي إعفاء منه لوال من الولاة : " وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ " . " وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ " .. وقد رويت مسائل شتى من مسائل السلم والحرب استعان فيها النبي عليه السلام بآراء أصحابه وعمل بها على خلاف ما أرتاه .

ومن تمام المسئولية الفردية تكافل الأمة في المسئولية العامة فان الأمة قد تصاب جميعا بضرر جناه عليها بعض أبنائها ، فمن حق كل فرد أن يدفع الشر عن نفسه وعن غيره :" وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً" ،وعلى كل فردأن يبذل في رفع الشر جهد ،ما يستطيع ، "لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَا وُسْعَهَا "ولكنه قد يصاب بضلال غيره عملا ولا يحاسب عليه شرعا[1] "لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ" هذه هي الأسس التي لا تقوم الديمقراطية على غيرها في بيئة من البيئات ،وإذا علمنا من شأن أمة أنها تؤمن بالمسئولية الفردية والمساواة وترفض الاستبداء بالرأي في الحكومة وتتواصى بدفع الشر متكافلة في دفعه – فلا يعنينا ما تسمى به في مصطلحات السياسية الحاضرة أو الغابرة، لانها أفضل الحكومات سواء عرفت باسم الديمقراطية أو غيرها من الأسماء.

---

(١) ٤\٧١٥: الموسوعة

ثم يقول : وفضل الديمقراطية الإنسانية(الإسلامية) على الديمقراطية عامة أنها لم تشرع إجابة لطلب أو خوفا من غضب ، بل شرعت وهى تغضب الأقوياء ولم يطلبها الضعفاء، وقد كان ضعفاء الأمم يثورون على الظلم كما يثور الحيوان الحبيس أو الحيوان الجائع أو المضروب،

ولكن الضعيف لا يثور لأنه يطلب حقا توجبه له كرامته الإنسانية، ولعله لو تمكن في مكان الأقوياء لم يحسب أنه يغضب حقا، أو يغض من كرامة حين يقسو على الضعيف المخذول[1]

وتتعدد بحوث العقاد وتتنوع بحيث لم يترك مأخذا ارتآه. كتاب الضرب، أو مؤخره على الإسلام وبنى الإسلام وحضارة الإسلام الا انبرى بمناقشتهم والرد عليهم وتفنيد آرائهم وظل صامدا في وجه التيارات الوافدة الزائغة والأفكار والمذاهب الضالة محلية كانت أو غربية يدافع عن الإسلام حتى وفاه أجله رحمه الله وغفر له.

د/ زهران محمد جبر.

---

(١) ١٤\٧١٦ الموسوعة